الموريسكيين "Moros y Moriscos"

بين التضليل الإعلامي وذمة التاريخ

"مفردات ودلالات في اللغة الاسبانية والتاريخ الأندلسي"

د. جمال خليفة الجازوي– جامعة طرابلس

بصفتي عضو هيئة تدريس متخصص في الدراسات الإسبانية وتاريخها وحضارتها وأبعادها الاستراتيجية رأيت أن أقدم للمهتمين والدارسين الكرام وأبنائنا الطلبة جزء من مرحلة خطيرة في ثقافة وتاريخ العرب في الأندلس من خلال اطلاعي عما كتب بالموضوع من كتابات الأسبان أنفسهم وباللغة الإسبانية خصوصا بقاياهم الذين تعرضوا لأبشع صنوف التنكيل والإبادة والتطهير العرقي ممن أطلق عليهم "الموريسكيين" وبالله التوفيق.

مدخل تاريخي:

تطلق تسمية المورو أو الموريسكي في اللغة الأسبانية على بقايا المسلمين في الأندلس الناجين من حملات البطش والإبادة والتصفية العرقية على من تبقى منهم بعد سقوط الأندلس في الثاني عشر من أكتوبر عام 1492 . والمفردة في حد ذاتها تعني التحقير والاهانة والعنصرية لأصحاب البشرة السمراء الباقين في الأندلس خصوصا بعد حملة تصفيتهم إثر محاكم التفتيش بشأنهم عام 1609م. حتى وإن نفى الأسبان والعارفين باللغة الأسبانية دلالة تلك المفردات. خلال حكم ملوك الأسرة النمساوية بلغت سياسة الابادة والملاحقة ومحاكم التفتيش ذروتها ضد المورسكيين. هذه السياسة وذلك الزمن يستحضر لذاكرتنا العديد من الصور والأحداث المأساوية التي ظهرت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر1517 – 1700.

تلك الأحداث التاريخية الغير مقبولة على كافة الأصعدة تنقلنا إلى الواقع المأساوي التاريخي الذي نلمسه اليوم ولعلها نفس الظروف التي تعيشها الآن الكثير من الشعوب المضطهدة في العالم خصوصا المسلمين في أفريقيا وأروبا وآسيا وأماكن أخرى كثيرة في العالم.

كي نتعرف على المشاكل التي صاحبت وجود تلك الأسرة، لجأت إلى العديد من المصادر والوثائق التاريخية سواء داخل أسبانيا أم خارجها حيث وجدنا الكثير من الروايات والحقائق والمعلومات

المغلوطة أحياناً والمتناقضة أحياناً أخرى، الموضوعية أحياناً والمنحازة أحايين هذا على الرغم من الروايات التي قيلت حول مواقفهم ومآثرهم ، إنجازاتهم، مسئولياتهم، مصالحهم والتزاماتهم ولما لا...وقد رأينا مدى إنكبابهم وانشغالهم بمصالحهم الخاصة وأمور دينهم كما يروي لنا التاريخ والمؤرخين .

وبالمناسبة لا ننفي أيضاً أنهم قد ارتكبوا أيضاً بعض الأخطاء والحماقات التي لا يمكن القبول بها فهي مثيرة للدهشة وغير مستساغة منذ الوهلة الأولى .[1]

من الصعب الولوج إلى عقلية هؤلاء الملوك وعصرهم على السواء لأن أفراد هذه الأسرة وخلفاءهم البعض منهم أصاب والبعض الأخر أخطأ كما شهد لنا التاريخ بهذا لكن جلهم دافع عن الديانة النصرانية الكاثوليكية و شن حرب الإبادة ومحاكم التفتيش التي اعتبروها ضرورية .[2]

على أية حال فإن هذه الأفعال كانوا يرونها تبريراً لموقفهم المتطرف والمتعنصر على الرغم من تذرعهم بتنفيذها إضافةً إلى الأعمال المشينة الأخرى باسم الدين وشرف الوطن والاثنين منهما براء مما يجعلنا نقدمهم في شكلهم الحقيقي لمحكمة التاريخ للقصاص منهم عما ارتكبوه.

كانوا منغلقين على أنفسهم، مرضى، من الصعب أن يفهموا وينفتحوا على من حولهم وكانوا محاطين بثلة من إتباع وحاشية فاسدة دون وفاء أو ولاء. لكن السؤال هو من أين أتى أولئك الملوك الذين كثيراً ما إمتدحهم التاريخ خلال مختلف حقبه المتتالية ؟!

كلنا نعلم أنهم كانوا ملوك مختلطي الأنساب، متعددي الإثنيات عديمي الهوية، متقلبي الأمزجة ذوو طبيعة انطوائية كثيري الخوف دائمو التوجس غير أوفياء يفتقرون إلى الثقة لكنهم متعطشين إلى السلطة والعظمة والكبرياء.[3]

هذه هي الحقيقة التاريخية المحزنة لهؤلاء الملوك ولو أن بعض المؤرخين يؤكدون العكس لأنهم يفضلون عدم الخوض في تحليل الأحداث وبذا تجاهل الحقيقة.

---

[1]- Cardillac,Louis, *El enfrentamiento entre moriscos y cristianos*,Granada, 1992

[2]- Véase el mismo citado Pag 92

[3]- Llorente, Juan Antonio ,*Historia de La Inquisición en España*,1tomos,ed Hiperión, Madrid 1981Pag32

هل يمكن فهم ذلك الحماس والشعور الديني وحقيقة الملوك الذين لم يكونوا يعترفون بأي عقائد دينية أخرى غير الكاثوليكية ..! ولو أنهم كان لديهم نفس المعتقد وسلكوا طريق الألوهية الواحد أي آمنوا بالوحدانية..؟

يمكن أن نقول بصراحة أن الإخلاص الديني لهؤلاء الملوك يمكن مناقشته والوقوف عليه وتفنيده حتى وإن لم يكن غير مبرر لأننا علي يقين من أن كل الحروب التي خاضوها خارج حدودهم كانت بهدف الرغبة في التوسع وكذلك الصراعات التي خاضوها في الداخل كانت لأسباب سياسة خالصة ولو أنها ظاهريا لا تبدو كذلك فدائماً ألبسوها رداء الدين .[4]

هذا تماماً ما حدث مع كل ملوك هذه الأسرة دون إستثناء بداية من عهد فيليب الثاني حيث بدا جلياً أنهم جميعاً تعاطوا سياسة تتماهى مع السلطات المطلقة. إن ذلك هو الهدف الوحيد الذي سخروا له حياتهم بالكامل والذي بسببه دفع الشعب الأسباني ثمناً باهظاً من حياته ودمه.

الملك فيليب الثاني وتعاطيه مع بقايا الأندلسيين "الموريسكيين":

كانت سياسة فيليب الثاني مع المورسكيين واحدة من أكبر المشاكل التي أرقت مملكته، سياسة إستنها وسلكها ذلك التاج منذ القرن الثالث عشر وتم تكريسها في عهد خليفته فيليب الثالث في بدايات القرن التاسع عشر وكانت وبالاً من خلال تبعاتها الكبيرة على الاقتصاد والسكان.[5]

إن الحرب التي شنها فيليب الثاني ضد المورسكيين كانت قاسية ورهيبة وكان الهدف من ورائها إبعاد المورسكيين وإجبارهم على ترك أراضيهم في غرناطة التي وزعت فوراً على النصارى وبهذا كان فيليب الثاني يواصل سياسة والده كارلوس الخامس بدعم حرب الإبادة والعنصرية دون هوادة .

السياسة الدولية لفيليب الثاني .

كان الأداء الدولي لفيليب الثاني واسع الأفق، بعيد النظر تماماً كسلفه والده كارلوس الخامس. هذا المنظور السياسي من جانبه كان اكثر فاعلية وحسماً في الحروب التي خاضتها تلك الأسرة المالكة

[4] - Espalza, M, *Problemas teológicas musulmanes y cristianos*, Revista Sharq al andalus, Alicante 1991, Pag 17

[5] -Gómez Zarraquino, Jose Ignacio, *La inquisición y los moriscos de Aragón en la segunda mitad del sigloXVI*, Aragón, 1980 Pag 124,162

خصوصاً فيليب الثاني وذلك بدافع الرغبة في بناء إمبراطورية تصل إلى كل أنحاء أوروبا وشمال أفريقيا وأمريكا وآسيا.

كما كان فيليب الثاني على المستوى الشخصي مهتماً بكل أمور الدولة وبشكل خاص شئون أوربا وبالسياسة الدولية عامة. وانطلاقا من قناعته التامة بدوره كحامي حمى الكاثوليكية عمل على تعزيز شعوره الديني عالمياً نظراً لالتزامه ظاهرياً "كما يحلوا لأغلب الحكام أن يكونوا"! بأنه عميق الأيمان دينياً، ولو أنه قبل موته كان يخلط بين ما هو بشري وما هو روحي وما هو الهي لدرجة المغالطة على الرغم أنه في ذلك العهد كان من الصعب ملاحظة الخلط بين العوامل الدينية والعوامل السياسية على حد سواء.

أصل محاكم التفتيش:

كانت سياسة الأسرة الملكية المذكورة، وهي بطبيعة الحال تواصُل لما كانت عليه سياسة الملوك الكاثوليك في السابق وكذلك سياسة البابوات ورجال الدين تهدف أساساً إلى إبادة المورسكيين بواسطة محاكم التفتيش ومصادرة أملاكهم وأرزاقهم بإتباع أقسى الوسائل وأشرها صرامة.

في العام 1605قام مجلس الدولة بإصدار قرار الطرد الذي كان قد أمر به الملوك الكاثوليك فرناندو وايزابيل إبّان عهدهم، حيث قام بمواصلته فيما بعد خلفهم كارلوس الخامس ثم ابنه وخليفته فيليب الثاني.

هذا القرار جاء ليقول أن المورسكيين الذين سيبقوا أو يستمروا في ديارهم لا يبقى أمامهم أي خيار إلا التحول إجباراً إلى الديانة النصرانية...!

كانت مسألة في منتهى الخطورة مادام المورسكيين الذين أُجبروا على ترك دينهم لم يكونوا أبداً نصارى بالاقتناع على الرغم من انخراطهم في المجتمع الكاثوليكي وعيشهم بين ظهرانيه.

أما عن وجود المورسكيين في الأراضي الأسبانية فقد بدا الشغل الشاغل طوال فترة ولاية فيليب الثاني.

ويحكي لنا التاريخ أن فيليب الثاني وعندما إعتزم إجبار المسلمين على التخلي عن عقيدتهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم ولغتهم، ربما كان العام 1566هو الأشد ضراوة في تنفيذ تلك المخططات والشاهد على تلك الأعمال الوحشية وتبعاتها المشينة على الساحة الدولية آنذاك.

إن شن الحرب على بقايا العرب في الأندلس "المورسكيين" وهو ما سُمي زوراً بحرب التحرير من قبل ملوك النصارى هو حرب الإبادة بعينها ضد هؤلاء المورسكيين المستضعفين والذين كانوا يمثلون الإسلام ، لذا من الصواب تسميتها بالحرب الحقيقية بين النصرانية والإسلام كما كان يريدها فيليب الثاني وقتذاك.

نعم هي كذلك وهي الحرب التي أعلنها فيليب الثاني وورثها عن أبيه كارلوس الخامس باعتبارها "واجب وطني" دون التعمق في جذور المشكلة أو البحث عن حلول للمشكلة المورسكية الأسبانية.

معروف ايضاً أنه في زمن فيليب الثاني ازداد وضع المورسكيين تأزماً لأنه أراد تطبيق سياسة أسلافه فرناندو وإيزابيل الذين كانوا يريدون توحيد نمط وشكل الحياة الاجتماعية الأسبانية والحفاظ على خصوصياتها و"نقاء الدم" وذلك بتخيير المدّجنين إما بتعميدهم نصارى أو إخراجهم إلى "بلاد البربر" موطنهم الأصلي..![6]

وبهذا كانت سياسة أولئك الملوك بمثابة أزمة مستمرة سواء على الجانب السياسي أو الديني.

فيليب الثالث والمورسكيين:

واصل وضع المورسكيين تأزمه خلال فترة حكم فيليب الثالث الذي عُرف بضعفه وعجزه السياسي أمام الأحداث وكان ينادي بالطرد الكامل للعرب متذرعاً بضرورة الحفاظ على "تنقية دينه" وهدوء مملكته.[7]

أما النتيجة المباشرة لهذا فكانت فقدان جزء كبير جداً من السكان ممن كانوا يعتبرون من أفضل المهنيين والمهرة المؤهلين للإدارة وكذلك الخبراء الزراعيين وكفاءات أخرى كانت ضرورية لتطوير كافة سبل الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد. وإذا كان ذلك الطرد بمثابة مأساة وعار تاريخي فإن النتائج كانت أشد قسوة وحزن لكلا الطرفين.

المؤكد أنه في ذلك الوقت عانت أسبانيا من الكثير من مظاهر الانهيار والإفلاس على كافة المستويات نتيجة لذلك الحكم الفاسد للملك فيليب الثاني بسبب الضغوطات والسياسات الاقتصادية

---

[6]- García Arenal, Mercedes, *Inquisición y Moriscos*, Madrid 1987,1Edi Pag 101

[7] –*Los moriscos en el pensamiento de Caro Paroja*, Revista cuadernos hispanoamericanos, Granada 1994. –*Los moriscos en el pensamiento de Caro Paroja*, Revista cuadernos hispanoamericanos, Granada 1994.Pag 58

والعسكرية الخاطئة التي انتهجها، أضف إلى ذلك أسباب الإسراف السياسي عن جهالة مما أدى إلى انهيار مملكة قشتالة وأدى بالبلاد إلى فوضى عارمة، هذا إلى جانب التسيّب الإداري والانحلال الاجتماعي والسمعة السيئة والشبهات داخل دوائر حكومته التي كانت تدير شئون تلك الإمبراطورية الواسعة نظراً لعبء المسئوليات التي ورثها عن أبية فيليب الثاني والتي لم يعد يتحملها كتفه الهزيل.

كان هذا الملك مُحباً للفنون والآداب واللهو وهو الذي قال عنه أبوه يوماً "لقد وهبني الله الأملاك الشاسعة لكنه لم يهبني الابن القادر على ولايتها وحمايتها".[8]

لكن التاريخ سجل بالتأكيد لهذه الأسرة فترة صدامات وصراعات مستمرة تبلوّر من خلال مفهومان اثنان هما:

-هوية تلك الأسرة وتكوينها الثقافي من خلال أعرافها المرتبطة بالتقاليد النصرانية أو ما يمكن أن نسميه بـ"ثنائية الإمبراطورية البابوية"!.

-إلغاء النظام القديم للدولة واستبداله بسياسة دينية جديدة ليتمشى مع سياسات العصر السائدة آنذاك.

على الرغم من قصر فترة حكمه نسبياً كان فيليب الثالث أول من تم الاعتراف به من الأسرة الملكية كوريث لكل الممالك في جزيرة أيبيريا ، وهي ذات الممالك التي ورثها خليفته فيليب الرابع بكل تبعاتها وما نجم عنها من إغراق البلاد في تدهور وإنهيار تام.

كانت فترة حكم أولئك مليئة بالاستفزازات والانتقادات وتقلب التحالفات والولاءات والصراعات والتعنصر وتزايد الشبهات والمؤامرات وكل أشكال التمرد والخيانة...الخ.

تقلبات وأحداث كانت في مجملها خطيرة جداً في صياغة التاريخ الأسباني والتي مازلنا نلمس تبعاتها وتعقيداتها حتى وقتنا هذا.

كيف يمكن أن نعلم أو نتخيل أن بضعة ملوك أمثال هؤلاء حتى لو افترضنا أنهم أذكياء ومثقفون وأقوياء ومتدينون كما يبدو وكذلك استطاعتهم التعايش والتسامح مع كل الإثنيات...

كيف يمكن تصوّر هذا بينما انفضحت عقليتهم الشريرة المتغطرسة الغير متسامحة من خلال ازدواجية تطبيق النظام والقوانين..؟!

[8]- Menéndez Pidal, Ramón, *Idea imperial de CarlosV*, Madrid, Espasa Calpe ,1941.Pag 223

على أية حال لا يمكن أن ننسى حجم الهزائم العسكرية التي توالت على مختلف الجبهات خصوصاً عام 1629والتي أدت إلى التفكك الداخلي في الممالك النصرانية الأسبانية، ربما كانت قشتالة هي المملكة الوحيدة التي سلمت من ذلك التفكك وتحولت بذلك إلى رمز للأمة الأسبانية مما جعلها تبسط نفوذها على بقية الأقاليم في البلاد وبهذا كانت بمثابة المخرج الوحيد لأسبانيا المعاصرة.

إن السياسة العمياء التي اتبعوها في الإبادة تجاه المورسكيين كانت المبرر الأقبح من الذنب إن كان هناك ذنب أصلاً..؟! أما التطهير العرقي الذي مارسوه ضد العرب أو بقاياهم المورسكيين كما أطلقوا عليهم فلم يشهد التاريخ جريمة أبشع منه حتى وقتنا هذا.

وفي سبيل تنفيذ هذا المخطط إتُبعت أبشع الأساليب الوحشية من تعذيب وتنكيل وتشريد وانتهاك لكافة الحقوق والأعراف لا لسبب إلا لكون المستهدف هو مورسكي أو كما أسموه "المسلم الحقير" والذي هو في الأصل عربياً..! غير أن التاريخ والجغرافيا يقران بانتمائه إلى الأرض التي ولد وترعرع فيها وهي جزيرة ايبيريا مع احتفاظه بدينه الإسلامي .

هؤلاء صودرت أراضيهم وأملاكهم ولم يعد أمامهم إلا الموت أو التحول إلى الديانة النصرانية لينعموا "بحياة هادئة".

من خلال الإطلاع على تاريخهم الخاص يتضح لنا أن الأسرة النمساوية الحاكمة قد انتهجت سياسة عنصرية قسرية متغطرسة في سبيل ممارساتها دون أي تحفظ إنطلاقاً من المؤسسات الملكية التي يشرفون عليها، وكان الظلم والملاحقة هي السمة الغالبة ضد رعاياهم الذين كانوا يشكلون شريحة هامة من السكان.

كانت سياسة الإبادة هنا ترتكز أولاً وأخيراً على نظرية عنصرية تستقي أفكارها من نصوص محددة ومحرفة من الكتاب المقدس وهي على أية حال نصوص ومفاهيم دينية خاطئة تجافي العقل والواقع.[9]

مما يرثى له أن الكثير من الوثائق والشواهد تكشف الكثير من البيانات والتصريحات والإجراءات التي اتخذها أولئك الملوك بالخصوص مذيلة بتوقيعاتهم وأختامهم طوال فترات مُلكهم المتعاقبة.

[9]- Marañon, Gregorio, *Expulsión y Diáspora de los moriscos españoles*, Revista de Occidente, Madrid 1980.Pag34

معظم تلك الوثائق تثبت بما لا يدع مجالاً للشك مدى اهتمامهم بالصراع الفكري بمختلف إتجاهاته المغلوطة.

كل تلك الشواهد تفضح ممارساتهم المشينة باستخدام السلطة المفرطة، فكل السلطات والأوامر الملكية والدينية تصب في إذكاء كل صنوف الإبادة والتطهير العرقي والتي بلغت ذروتها في الفترة من القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر.

تقييم ونقد:

إن كل المصادر والمعلومات والوثائق التي تتحدث عن موضوع الإبادة ومحاكم التفتيش ضد العرب في الأندلس إبّان فترة ملوك الأسرة النمساوية تؤكد مجدداً أن ملوك هذه الأسرة كانوا جميعاً تحت تأثير مساعديهم من رجال دين بالدرجة الأولى ومستشارين ومقربين، وهذا بدوره يسهل علينا فهم مدى التعقيدات والمشاكل الدينية والسياسية والعرقية التي تورطوا فيها خلال فترة حكمهم المتعاقبة وما صاحبها من سلسلة حروب طويلة واتفاقيات وأحلاف وزيجات تحالفية ..الخ.

أما الدين فكان تقريباً السبب الرئيسي في حروبهم وصراعاتهم . أما بالنسبة لعلاقات القرابة فكانت هناك وشائج أسرية من خلال المصاهرة بينهما وذلك حينما تزوج الكثير من أبناء التاج الإسباني بأبناء عمومتهم في فيينا بالنمسا.

أما تعزيز هذه العلاقة فهو لا يستجيب لعلاقات القربى فحسب وإنما لاستراتيجيات تخدم مصالح أسبانيا دون غيرها.[10]

لكن على أية حال كانت البواعث السياسية في تقديري أكثر حسباناً من الدينية ولو أننا قد لاحظنا أن كلاهما مرتبط بالآخر مادام الحاكم يعتقد أن حروبه وصرا عاته ما كانت إلا لأسباب دينية وعقائدية الأمر الذي اكتنفته الكثير من المغالطات والتحريفات بفعل مستشاريهم المقربين منهم. بدخول القرن الثامن عشر بدأت الإمبراطورية الأسبانية تفقد سيطرتها وأملاكها وبها رجها بسبب حكامها الذين لم يعرفوا كيف يسلكون الطريق الصحيح ولا السلوك القويم في مسلكهم بل أغرقوا في مشاكل ومتاهات لا حصر لها .

[10] - Carrasco Urgoiti, M° Soledad, *El prooblema morisco en Aragón al comienzo del reinado de Felipe II*, Valencia 1969.Pag88

المراجع

كما أشرت في بداية الموضوع، فما كتب عن المورسكيين لا حصر له في المكتبة الأسبانية والعربية على حد سواء نظراً لأن العرب المسلمين أو المورسكيين كما أطلقوا عليهم أو "المورو– Moro " في أيامنا هذه ستكون جزءاً أساسيًا من التاريخ أسبانيا الوسيط والمعاصر .

وأثناء كتابة هذه الورقة استعنت بما كتبه الأسبان أنفسهم لكشف مدى التحريف والتزييف والتعنصر عند البعض، وكذلك الموضوعية و صدقية البحث التاريخي والتوثيقي عند البعض الآخر وسأذكر منها:

1. Boronat, P *Los moriscos españoles y su expulsión*,Valencia 1901.2 vols.
2. Cardillac,Louis, *El enfrentamiento entre moriscos y cristianos*,Granada, 1992
3. Caro Baroja, Julio, *Los moriscos del reino de Granada*, Inst de Estudios Políticos, Madrid 1957.
4. Carrasco Urgoiti, M° Soledad, *El prooblema morisco en Aragón al comienzo del reinado de Felipe II*, Valencia 1969.
5. –*Los moriscos en el pensamiento de Caro Paroja*, Revista cuadernos hispanoamericanos, Granada 1994.
6. Domínguez Ortiz,Antonio, *Los Moriscos granadinos antes de su definitiva expulsión*, Miscelánea de estudios árabes y hebraicos XII y XIII, 1963.
7. Espalza, M, *Problemas teológicas musulmanes y cristianos*, Revista Sharq al andalus, Alicante 1991.
8. García Arenal, Mercedes, *Los moriscos*, Ed Nacional, Madrid, 1975.
9. García Arenal, Mercedes, *Inquisición y Moriscos*, Madrid 1987.

10. Gómez Zarraquino, Jose Ignacio, *La inquisición y los moriscos de Aragón en la segunda mitad del sigloXVI*, Aragón, 1980.
11. Llorente, Juan Antonio ,*Historia de La Inquisición en España*,4tomos,ed Hiperión, Madrid 1981.[11]
12. Marañon, Gregorio, *Expulsión y Diáspora de los moriscos españoles*, Revista de Occidente, Madrid 1980.
13. Menéndez Pidal, Ramón, *Idea imperial de CarlosV*, Madrid, Espasa Calpe ,1941.